النظرية الخليلية الحديثة لـ:عبد الرحمن الحاج صالح والمنهج البنيوي –دراسة مقارنة–

The Modern KHALIL Theory by: Abdul Rahman Al-Haj Saleh and the Structural Linguistic Approach - Comparative Study -

أ.عبد الرحمان حاج علي

جامعة عبد الحميد بن باديس–مستغانم- Abderrahmane.hadjali@univ-mosta.dz

إشراف أ_د/ أحمد عزوز جامعة وهران 01- أحمد بن بلة –

تاريخ الاستلام:2019/09/03 تاريخ القبول: 2019/09/26 تاريخ النشر : 2019/10/09

الملخص: يعتبر الدّرس اللساني المعاصر امتداداً للدرس اللّغوي التراثي، بحيث يكون من الإجحاف الفصل بينهما، ويمكن القول بأنّ التسميات متعددة ولكن المسمّى واحد. ولكن في باب البحث العلمي لا يمكن التقليل من أهمية الرأي الذي يحاول الفصل بين التراث اللغوي واللسانيات المعاصرة، حيث أن كل بحث في هذا المجال يُعتبر إثراءً للدّرس اللّغوي، كمحاولات لإيجاد البدائل التي تساير الواقع اللّساني العالمي.

إنّ علم اللّسانيات علمٌ واسعٌ يشمل كلّ ما يمسّ اللّسان واللّغة بصلة، كما أنّه علمٌ جامع لكل العلوم اللّغوية الأصيلة والحديثة، ونظراً لشموليته وسمته التطورية، فقد أوجد علاقات مع بقيّة العلوم الإنسانية والطبيعية، وتطورت الأبحاث في أصوله وفروعه، ونذكر من أبرزها ما قدّمه عبد الرحمن الحاج صالح (1927-2017)، حين قدّم الحلّ والبديل التوفيقي الذي يمكن اعتماده كمنهج وأساس للدّرس اللّساني، مؤسّساً "النظرية الخليلية الحديثة"، والتي تعتبر برهاناً على قوّة النحو العربي الذي أسّسه سيبويه والخليل وابن جنّي ومعاصروهم، وقدرته على حمل نفسه وتطوير ذاته، عن طريق مسايرة الواقع اللّغوي، وتوفير المتطلّبات المنهجية والبحثية والمادة المعرفية للّسان المعاصر.

الكلمات المفتاحية: النظرية الخليلية، اللسانيات، البنيوية، القواعد اللغوية، المنهج، التحليل.

Abstract:

The contemporary lingual lesson is an extension of the studied linguistic heritage so that it is a mistake to separate them. We can say that those are multiple labels that mean the same thing. Hence, in scientific research, we cannot underestimate the view that is trying to separate between the linguistic heritage and contemporary linguistics where each research in this area is an enrichment of the linguistic lesson which is meant to find some alternatives that keep place with global linguistic realities. It could be argued that linguistics is a broad science that includes all aspects affecting the tongue and the language. It is also a field that gathers all inherited and modern linguistics and because of its evolutionary aspect, it has created relationships with the rest of humanities and natural sciences. As a result, research evolved in its assets and branches. The work of Professor Abderrahman Hadj Salah is one of the most important contributions in this area. He presented the solution and the alternative that we can adopt as a method and basis for the lingual lesson and we mean by this "the modern Khalil theory". This latter is a proof of the power of Arabic grammar founded by Sibaweih, El Khalil, Ibn Jinni and their contemporaries and its ability to develop itself through linguistic cope with the reality and provide the contemporary requirements of modern tongue.

Keywords: Theory of *EL-KHALIL*, Linguistics, Structuralism, Grammar, Methodology, Analysis.

المؤلف المرسل: عبد الرحمان حاج علي، **الإيميل:** Abderrahmane.hadjali@univ-mosta.dz

- **مقدمة:**

أوّل ما يتبادر إلى ذهن كل دارس لمناه البحث في علوم اللسان: "المنهج البنيوي"، في اللسانيات الغربية مثلما في اللسانيات العربية الحديثة، ومن جهة أخرى نجد الدّرس اللساني العربي المعاصر يحتفي بالنظرية الخليلية التي جاء بها عبد الرحمان الحاج صالح، ومن أجل توضيح ملامح الدّراسة والبحث في هذين التّوجهين الرائدين، لابدّ من إجراء دراسة مقارنة نهدف من خلالها لدعم الدّرس اللساني وتوجيهه نحو أطر نظرية وتطبيقية أكثر وضوحاً وشمولية، تساعد الدّارس والباحث والمنظّر والمحلّل لرسم مساره وتحديث معارفه في خضمّ التسارع المعرفي والمنهجي المعاصر، الذي يستوجب تحكّماً في اللغة وعلومها خدمة للتواصل الفعّال.

1- التعريف بالنظرية الخليلية:

النظرية الخليلية سميت كذلك نسبة لدراسات الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومن عاصره وسار على نهجه كسيبويه، وهي تشمل كل مجالات الدرس اللغوي التي تطرق إليها هؤلاء، من صوتيات ونحو وصرف ومعاجم وعروض وبلاغة. يقول عنها صاحبها عبد الرحمن الحاج صالح[1]: "تعرّضنا في هذه الدراسة لأول مرة لتقويم النظرية اللغوية العربية التي كانت أساساً لأغلب ما يقوله سيبويه وشيوخه ولاسيما الخليل، وكيفية مواصلة هذه الجهود الأصلية في الوقت الراهن"[2].

وفي هذه النظرية، قام البروفيسور عبد الرحمن الحاج صالح بتحديد استنتاجات الخليل ومعاصريه، المقصودة بالدراسة، والتي تشكل لبنة العلوم اللغوية العربية نحواً وبلاغةً ودلالةً ومعجمية، أي: جميع مستويات التحليل اللساني، التي لازالت قائمةً ومعتمدةً في اللغة العربية، استعمالاً وتحليلاً ونقداً، وكمثال على ما يتم التطرق إليه: "مفهوم الاستقامة وما إليها وما يترتب على ذلك من التفريق المطلق بين ما يرجع إلى اللفظ وبين ما هو خاص بالمعنى/ مفهوم الانفراد في التحليل وما يتفرع من هذا المفهوم/ مفهوما الموضوع والعلامة العدمية/ مفهوما اللفظة والعامل..."[3].

تبدو هذه المواضيع حديثةً في اللغة، وهي جوهر الإشكالات اللسانية الحديثة، ولكن لو عدنا إلى الدراسات الخليلية ودراسات سيبويه، فإننا سنجد لها شرحاً وافياً.

يقول سيبويه بخصوص مفهوم الاستقامة: "فمنه – أي الكلام- مستقيمٌ حسن ومحالٌ ومستقيمٌ كذب ومستقيمٌ قبيح وما هو محالٌ كذب"[4]، وفي هذا وصل بين المبنى والمعنيين السّطحي والخفي، وتفرّع هذا الأخير إلى معاني متعددة، محدّدة لا تحتاج إلى تأويل.

وبالنسبة لمفهوم الانفراد وحدّ اللفظة، يقول الخليل بلسان تلميذه سيبويه "إنّه لا يكون اسم مظهر على حرف أبداً لأنّ المظهر يسكت عنده وليس قبله شيء ولا يلحق به شيء"[5]، وفي هذا حديث عن الانفصال والابتداء، وبهما يتمكن "الباحث من استكشاف الحدود الحقيقية التي تحصل في الكلام"[6].

بالتطرق إلى هذه المواضيع يريد الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح التقريب بين الدراسات اللغوية النحوية الأولى والدرس اللساني الحديث ومواضيعه، حيث يبدأ بـ "وصف المبادئ المنهجية التي بنيت عليها هذه النظرية، وذلك بالمقارنة بين المبادئ التي تأسست عليها اللسانيات الحديثة وخاصة البنيوية والنحو التوليدي التحويلي وبين هذه النظرية".[7]

ومن خلال ما تقدم يتجلى لنا الهدف الأساس من هذا البحث إذ يشير إليه الدكتور الحاج صالح، ويكمن في: "مواصلة ما ابتدأه الخليل وسيبويه ومن تابعهما ولكن بعد التمحيص لما تركوه من الأقوال والتحليلات أي بعد التحليل النقدي الموضوعي لها"[8]

ويبدأ الدكتور دراسته بالإشارة إلى موضوع أصالة النحو العربي في القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وضرورة توظيف هذه المادة في الميدان التطبيقي، وبعد هذا التقديم المبسط، يأتي على ذكر المفاهيم الأساسية للنظرية، ومن ثم يدخل إلى مجال الدراسة اللسانية، وهذا ما تم التطرق إليه في هذا الجزء من البحث.

2–النظرية الخليلية الحديثة والمنهج البنيوي:

تمهيداً للتطرق للموازنة التي أجراها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، بين المنهج البنيوي ودراسات الخليل، لابدّ من التطرق إلى مفهوم النص الذي يُعتبر النواة التي تدور حولها الدراسات اللسانية وفق مناهج مبنية أساساً على نصوص نموذجية، سواء اعتماد طبيعة بنية النص مباشرةً كأساس، أو الانتقال من الجزئيات والمستويات الأولى تدرّجاً نحو الكليات، أو الانتقال من الكلّ لتحديد الجزء.

إنّ ما دفع بالدراسات اللسانية الحديثة إلى اتّباع سبيل منهجي آخر يتمثّل في دراسة النّص كنصّ، أي كبنية متجانسة المعالم بدل دراسته كبنية ذات أوجه متعددة، وأجزاء منفصلة. هذا التحول في الدراسات اللسانية "أخرجها نهائياً من مأزق الدراسات البنوية التركيبية التي عجزت في الربط بين مختلف أبعاد الظاهرة اللغوية البنوي والدلالي والتداولي"[9].

ويعتبر المنهج البنيوي أكثر المذاهب بروزاً في دراسة وتحليل النصوص منذ النصف الأول من القرن العشرين، والسبب الرئيس لظهوره هو رغبة لغويي تلك الفترة في إحياء اللسانيات وتخليصها من "المواقف المتطرفة التي اتّخذها منظّروا هذا العلم المحدث"[10] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الذين وضعوا أسساً منهجية كان أغلبها تاريخياً، وفيلولوجياً قديماً، يدور في حلقة القضايا اللغوية نفسها، ويرفض كل عملية إبداعية تخرج عن نطاقه "وفوق هذا كله فإنّ تصلّب الفيلولوجية المحدثة وعدم تنازل أصحابها عن قولهم بأن "لا علم إلاّ في المنهج التاريخي"[11]، أي أن اللسانيات في نظرهم كانت تعني وتقتصر على الدراسة التاريخية للغة. وهذا ما رأى فيه اللغويون المحدثون، حصراً لموضوع اللسانيات، بل وعائقاً أمام تطوّرها، وعارضوا بشدّة ما يدعوا إلى الاقتصار على المناهج التي وضعها السّابقون، الذين "جمّدوا أصولها النظرية والمنهجية، فذهب عنها ما كانت تتصف به من المرونة والقابلية للتّكيف، فصارت بعدهم مبادئ مطلقة غير مقيّدة بوقائع البحث وطوارئه"[12].

ظهرت البنيوية كمدرسة لغوية لسانية في القرن العشرين، وهناك وجهات نظر مختلفة فيما يخصّ أوّل من اتّخذها منهجاً للدّرس اللساني الحديث، والرأي العام هو القائل بأنّ: "الفضل في ظهورها يعود على فرديناند دي سوسير، مؤسّس النظرية اللسانية المعاصرة"[13].

يتجلّى إعمال المنهج البنيوي بصفة عفوية في دراسات دي سوسير التي جمعها تلميذاه "شارل باليه CHARLES BALLY"، و"ألبير سيشهاي ALBERT SECHELHAYE"، في كتاب "دروس في اللسانيات العامة Cours de linguistique generale"، الذي نشر سنة 1916، وترجم إلى لغات عديدة (اليابانية، الألمانية، الروسية...)، "ولم

يترجم إلى العربية إلاّ في بداية الثمانينات. وبتوالي طبعات هذا الكتاب وترجماته إلى اللغات المختلفة أصبح منطلقاً لا للتفكير اللساني فحسب بل للتفكير الإنساني بصفة عامة"[14].

هذا ما ساعد بشكل كبير في إرساء قواعد البنيوية وتزويدها بمنطلقاتها النظرية، ممّا جعل صاحب الكتاب يحظى بلقب "أب اللسانيات الحديثة"، كما لا يزال الكثير من الألسنيين على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم، يعتمدون استنتاجات دي سوسير كمرجع أساسي في دراساتهم اللغوية واللسانية المعاصرة.

"وإن كان بعض الألسنيين مثل ياكوبسون يرى أنّ اللسانيات البنيوية لها جذور أقدم من ذلك، فهي ترتبط عنده بالأمريكي شارل بيرس (1839-1914)"[15].

إن البنية المشار إليها هي كلّ متجانس يحوي ظواهر لغوية متناسقة ومرتبطة بحيث لا يمكن عزل إحداها للدّراسة والتحليل بعيداً عن بقية الظواهر، لأنّ "قيمتها لا تكمن في كونها ظواهر منعزلة، ولكنّها تكمن في أنّها تمثّل عناصر بنية ما"[16].

وتكتسب هذه الظواهر اللغوية صفة الترابط اعتماداً على علاقات وقواعد وقوانين وظيفتها الأساسية إعطاء الشّكل الخام بنية لغوية.

خلاصة القول أنّ المقصود بـ"البنيوية هو المذهب اللغوي العلمي الذي ظهر في أوربا وأمريكا في بداية القرن العشرين الميلادي، وتطوّر وبلغ أشدّه في نهاية الأربعينيات، وهو يدعو إلى دراسة اللغة كنظام وكبنية لها وجود سابق لوجود أجزائها ومكوناتها"[17].

من هذا التعريف الموجز بالمنهج البنيوي، وبناءً على ما تمّ إيراده سابقاً فيما يخصّ قضايا النحو العربي، نحاول فهم ما توصّل إليه الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح، من استجلائه للاختلافات النظرية والمنهجية بين النحو العربي – ممثّلاً في المدرسة الخليلية الحديثة– والبنيوية كمنهج لساني نقدي غربي، ونحاول من خلال ذلك استقراء أساسيات المنهج البنيوي وخصوصيّاته التطبيقية.

وفرضت اللسانيات الجغرافية نفسها ممّا أتاح انفصال الدراسات التاريخية والفيلولوجية عن اللسانيات العامة.

إنّ ما جاء به دي سوسير وآمن به تلامذته ووظّفوه في دراساتهم اللغوية اللسانية يعتبر لبنة ثورة اللسانيات على الفيلولوجيا والدّراسة التاريخية المتقوقعة على نفسها، "فما الدّراسة الآنية للغة إلاّ ردّ فعل طبيعي على طغيان المنهج التاريخي طيلة القرن التاسع عشر، دون إقصائه"[18].

والمنهج البنيوي كان أساسه في بداياته ، دراسة اللغة بذاتها ولحدّ ذاتها، دون اعتبار لأيّ عامل تاريخي أو خارجي سياسيًا كان، اجتماعياً، ولا ذاتياً حتّى، فعلى سبيل المثال في تحليل النصوص الإبداعية يعتبر البنيويون النّص جوهر ذاته، وعليه تتوقف العملية الإبداعية، وهذا التعصب للنّص سنرى فيما بعد أنه يعدّ نقيصة من نقائص المنهج البنيوي التي تؤخذ عليه، ولكن بما أنّ البنيوية ذاتها قامت نتيجة ثورة على مثل هذا التعصب، فقد نجح روادها في تطويرها ومعالجة بعض ثغراتها، مثل لوسيان غولدمان الذي يرجع إليه الفضل في تحوير استنتاجات جورج لوكاش وتقويمها لتلائم نظرته الواعية بأنّ العمل الأدبي يعكس الواقع في جوانب كبيرة من مضمونه. وبذلك يتمّ إشراك الذات المبدعة كمرآة عاكسة للمجتمع، وهذا الأخير لابدّ وأن تكون لديه قناعات تاريخية مشتركة حتّى يؤثّر بطبيعة الحال وبكلّ عفوية على فرد منه،

هذا الفرد هو الذات المبدعة... وعلى مثل تحويرات لوسيان غولدمان، قامت مدارس أخرى للبنيوية، على غرار الشّكلانية الروسية، والبنيوية التوليدية التحويلية، والتوزيعية...

وهذه هي النتيجة المنهجية التي توصّل إليها دي سوسير ومعاصروه، حيث برهنت اللسانيات الحديثة "على أن المنهج الآني الوصفي السّكوني والمنهج الزّماني التاريخي متكاملان وكلّ منهما في خدمة اللغة، فالآنية تدرسها من حيث هي جهاز وتدرس وظائفها وعلاقة عناصرها بعضها ببعض. والزمانية التاريخية تدرس تطوّرها في منعرجاتها"[19]، ويتمّ كلّ ذلك بتدخّل روابط وظواهر لغويّة تجعل من وجهي الدّراسة شيئاً واحداً لا يمكن فصل أجزائه.

لابدّ من الإشارة أوّلاً إلى أن هناك نزعتين أو اتّجاهين، في أوساط اللغويين والألسنيين والنقاد العرب المعاصرين، فهناك من يعتبر الدراسات اللغوية التراثية، الأساس الذي ينبغي اعتماده وتطويره لبناء نظريات لسانية تتوافق وتتساير مع معطيات الواقع اللساني العربي وتغيراته وخصوصياته.

يقول الدكتور أحمد العلوي: "منذ قيام أول تحليل بنيوي للرأسمالية، أصبح البحث اللساني قائماً على المفاهيم التي تتبدل، لا على اكتشاف المقادير"[20]، أي أن الدراسة اللسانية لا يجب أن تتقوقع على نفسها وتسلم بنتائجها، بل عليها أن تساير التطورات والاكتشافات الحديثة في شتى المجالات والعلوم الطبيعية والإنسانية.

إن اللسانيات المعاصرة لا تقصي كل ماجاء به المنهج البنيوي في بداياته، بل تعيد تشكيله ليتناسب والمعطيات المتجددة، ومن ذلك أنّ اللسانيات تنطلق من القول بأن اللغة نص كما هو الحال في البنيوية، أو تنطلق من القول بأنها كفاءة عقلية كالحال في التوليدية بمدارسها...لذلك لا يصحّ وضع فاصل معرفي بين العمل اللساني القديم والحديث، البحث اللساني الحديث هو امتداد للبحث القديم، يتعامل معه ويتحاور وإياه.

وفي إشارة منه إلى قضية تأثر اللسانيات العربية بالنظريات الأجنبية، في مقابل إهمالها للتراث اللغوي العربي، يقول أحمد المتوكل: "انتقل المغاربة متعجلين إلى المذاهب الغربية في اللغويات الغربية ولم يكن مضى عليهم زمن كاف في اللغويات العربية"[21]، حيث أنّ الدراسات اللغوية التراثية لم تأخذ حقها من الدراسة والتحليل، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، عصر ازدهار الدراسات اللسانية.

كما أن عدداً من الألسنيين العرب عبروا البنيوية بمذاهبها إلى التوليدية بفروعها، ونقلوا النماذج ... وفاتهم أن بعض علمهم مذاهب متروكة عند أهلها وأن البحث اللغوي في الغرب هو ثمرة حوار قائم عندهم كالحوار السياسي. وبما أنه كذلك، فهو بعيد عن وقائع البحث والحوار اللغوي الذي من المفروض أن يكون دائراً بين اللغويين العرب، بل وأكثر من ذلك حيث أنّ "كلّ بضاعة لسانية تستورد تتحول إلى مانع يمنع قيام الحوار المحلي، وليس ذلك عيباً في البضاعة"[22]، فهي تعتبر نموذجية بالنسبة للغتها الأصلية، ويشبه الأمر أن يتمّ استيراد سيارات انجليزية بمقود على الجهة اليمنى وتتمّ قيادتها في مسار غير متوافق.

رغم هذا يجب ألاّ يتم الخلط بين من يسهم في محاولة مسايرة الركب العالمي، وبين المقلد، فـ"تمّام حسان وعبد الرحمن أيوب ومحمد المبارك وسعيد الأفغاني وغيرهم كانوا أكبر من أن يدرجوا بين جماعة المقلدين الجدد"[23].

في خضم هذه المعطيات، تتجلى لنا حقائق إذ لا يستطيع أحد أن ينكر أن اللسانيات المعاصرة تحمل في خلاياها وثناياها خصائص الممارسة اللغوية الأوربية ومصطلحاتها، ويضاف إلى ذلك أن اللغويين العرب ليسوا مشاركين في الحوار

اللغوي الأوربي الأمريكي وإنما هم متبضعون، إذن يمكن أن يقال بحق أن الحوار اللساني العربي التراثي الأصيل كان على مستوى أرقى من الدراسات الحالية، انظر إلى سيبويه الذي كان مشاركاً في الحوار اللساني لعصره وقارنه بالمبرد الذي كان أستاذاً كبيراً ولكنه لم يكن مشاركاً بدرجة سيبويه، فلتجدن حينئذ في خطاب سيبويه وضوحاً وانتظاماً لا تجده في كتابات المبرد. ولهذا لابدّ من تفعيل أساليب وفضاءات الحوار بين اللغويين العرب على اختلاف توجهاتهم وآرائهم، حتى يتم تجنب خطأ جمّ وهو أنّه إذا كانت اللغة الواصفة مرتبطة بخيال أجنبي فإنه يتعسر ويتعذر توطينها[24].

كلّ هذا لا يقلّل من قيمة الإنتاج العلمي للفئة الثانية، بل ولايكاد يذكر معه، كونه يحمل في طياته بذور فنائه، فهو ليس قائماً على أسس صحيحة منطقية تحفظ له استمراريته، وما يزيد من احتمالية تقلصه: عدم قدرته على مسايرة تطوّرات الدراسات والمناهج الغربية التي اعتمدها كمرجعية، فهو في كلّ مرّة يزيد بعداً عن الواقع اللغوي العربي ومقتضياته، لأنه –وإن تشابهت الأصول، فالفروع تختلف.

يتّخذ هذا الصراع مظهراً تلخصه المعادلة: النحو≠اللسانيات، التراث اللغوي العربي≠اللسانيات، وهنا يكمن أساس القضية بمجملها، ولكن تتّضح أطراف المعادلة إذا علمنا أنّ كلّ لفظة أجنبية دخيلة في الدراسات العربية، إلاّ ولها مسمّى في النّحو العربي، أعمق وأسبق، "لاحظ أنّ شومسكي زعيم اللسانيين في عهدنا كان يسمّي أبحاثه بالنحويات.

كما يجب التركيز في المسميات ومضامينها ومدلولاتها، فمثلاً "هل هناك شيء اسمه –اللغة الفرنسية-؟ لا، الذي هو موجود هو المتكلمون بالفرنسية، أمّا اللغة الفرنسية فكيان يتخيله اللغوي ويصنع حدوده ويستدلّ عليه من قلب النظر اللغوي[25].

إذن فالأساس هو الإنسان المتكلّم باللغة، وليست اللغة المجرّدة، وإهمال هذا الإنسان وخصوصيّاته والاكتفاء بدراسة نماذج غربية غريبة عنه، تنطبق على كيان مختلف، وذهنية مختلفة عن الفكر العربي، تنتج عنه طفرات وعيوب في الدراسة اللغوية وتطبيقاتها.

بالإضافة إلى هذه القضايا التي عالجها عبد الرحمن الحاج صالح وعديد الألسنيين واللغويين والنقاد العرب، "هناك ملاحظة أخرى هي أنّ الاشتغال بالقضية اللغوية من الناحية النظرية استغرق وقتاً طويلاً... وعلى اللغويين الآن استخدام تلك المعارف في دراسة واقعهم اللغوي "[26]، وتطبيق النتائج على أرض الواقع، فـ"لا معنى للبحث في اللغة إن لم يكن مجالَ تدريبٍ يمكّن من الإجادة في رصد أنماط الممارسة اللغوية الفعلية"[27]، فالهدف من الدراسة النظرية هو إمداد الدراسة التطبيقية بالمادة الأولية لتطبيقها على أرض الواقع.

إنّ ما يدعوا إليه المنادون بفصل التراث اللغوي العربي عن اللسانيات الحديثة، يُنمّ عن تأثرهم الكبير بالمناهج الغربية، حتّى أنّ هناك من ينادي بتفعيل اللهجات، وبذلك تصبح العربية "عربيات"، تماماً مثلما حدث عند العرب عندما قامت الدراسات المشتّتة للغة اليونانية، فتمخّضت عنها لغات عدّة فرنسية، انجليزية، إيطالية، إسبانية، وهذا ما يرفضه المجتمع العربي، واللغويون خصوصاً، كون العربية الفصحى جزءًا من هوية أمة واحدة، فعلى كلّ عربي أن يتقن لغته لأنّ اللهجة لا يمكنها أن تصير بحال من الأحوال لغة علم، فهي لا تصلح إلاّ للتخاطب بين جماعات محدودة.

وفي مقدمة استجلائه للاختلافات النظرية والمنهجية بين النحو العربي والبنيوية، يشير إلى أن ما يقصده بـ: "النحو العربي" في هذه الدراسة، هو: "نحو الخليل وأصحابه، أو ما وصل إليه النّحو في زمانه وزمان سيبويه وفي عهد أتباعهما الكبار"[28]، من نظرة أنّهم المبدعون الأوائل للنّحو العربي والمؤصّلون له.

كما حدّد أيضاً مقصوده "للبنيوية": "إنّ الذي نقصده بالبنيوية هو المذهب اللغوي العلمي الذي ظهر في أوربا وأمريكا في بداية القرن العشرين الميلادي وتطور وبلغ أشدّه في نهاية الأربعينات وهو يدعو إلى دراسة اللغة كنظام وكبنية لها وجود سابق لوجود أجزائها ومكوناتها"[29].

بعد تحديد جانبي الدراسة، لابدّ من توضيح المقاربات التي أحدثت بعض التوافق بين النحو العربي واللسانيات البنيوية.

- وأولاها: أنّ لكلا العلمين موضوعاً واحداً وهو اللغة في ذاتها، حيث تتمّ دراسة اللغة دراسةً آنية سنكرونية، من حيث هي أداة للتعبير عن الأفكار الإنسانية، ووسيلة تواصليّة، وكلّ من النحو واللسانيات البنيوية يتناول اللغة بالتحليل إلى أجزائها الكبرى والصغرى، وكلاهما يبحث عن كيفية تركيبها بعضها في بعض. وهذا ما كان عليه منهج الدراسة النحوية العربية منذ عهد الخليل وسيبويه، ونفس المنهج اتّبعته اللسانيات البنيوية التي جاءت لتخليص اللسانيات من طغيان المنهج التاريخي والدراسة الدياكرونية التي كانت تحصر الدرس اللغوي اللساني في تتبع أصول اللغات وفروعها ودراسة أجزائها منفصلة، فصارت اللسانيات تتتبّع "تطور بنى اللغة لا تطوّر جزئياتها منفردة[30].

وهذا لا يعني خلوّ الدّرس اللغوي العربي قديماً من الدراسة التاريخية للغة خلواً تاماً، حيث نجد أن سيبويه والأخفش أبديا "بعض الملاحظات القيمة في تحول اللغة عبر الزمان... وقد كان للخليل أيضاً نظرة دياكرونية في أقوال كثيرة، منها اشتقاقه ل:لن مِن لا، وأن وليس مِن لا وأيسَ"[31].

وكان هذا من نتيجة دراسته التاريخية للغة العربية ولهجاتها، وتطوّرها عبر الأزمنة المختلفة في بيئات لها خصوصيّاتها.

وكنقطة التقاء ثانية ينطلق البنيويون من واقع اللغة كظاهرة وكذلك النحاة الأولون، وبهذا الاعتبار، كان لابدّ من تحديد أبعاد هذه الظاهرة الإنسانية، وحتى يتمّ ذلك تمّ استقراء الواقع اللغوي اعتماداً على الملاحظة والسّماع، فالبنيوية تعتمد على "مجموعة معيّنة من الخطابات يدوّنها اللغويون في عين المكان الذي يعيش فيه في زمان معيّن أصحاب اللغة المراد تحليلها والبحث فيها[32]، ويقصى تماماً رأي الباحث أو محاولاته التصحيحية بناءً على القياس مع لغت أخرى، حيث أنّ الأصل في الدراسة هو المشاهدة والوصف والموضوعية.

ويقابل المشاهدة المعتمدة في البنيوية، السّماع في النحو العربي، القائم على التحريات اللغوية الميدانية، حيث يتمّ ذلك وفق معايير وشروط صارمة سواءً بالنسبة للمناطق الجغرافية أو المتحري أو الرّاوي، وصولاً إلى كتابة المسموع وتدوينه واعتماده كأصل للقاعدة، حيث تُعتمد في كلّ ذلك تقنيات ومناهج علمية مدروسة من جوانب عدّة تقوم على مفاهيم محدّدة ك"الفصاحة"، و"الشاهد"، و"المصدر"، و"الإجماع"، وقد جمع عبد الرحمن الحاج صالح كلّ هذا وغيره في كتابه الموسوم بـ:"السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة".

وبالإضافة إلى هذه المواضيع التي تطرقنا إليها، نجد في الكتاب دراسةً عن "خصائص المسموع اللغوي العربي ونقد المفهوم البنيوي للمدوّنة"[33].

بالعودة إلى الموضوع الرئيسي، وفي نقطة الاتفاق هذه، هناك بعض الاختلاف، إذ أنّ السماع عند النحويين عند تدوين نتائجه تبقى هذه الأخيرة قابلة لتعديل والإضافة، دون الخروج عن الشّروط الأولى التي دُوّنت على أساسها، بينما عند البنيويين هناك ما يسمّى بـ "المدوّنة المغلقة"، حيث يتمّ دحض كلّ ما يعارض الاستنتاجات المتوصّل إليها، بحيث لا تقبل المدوّنة التّعديل أو الإضافة، و فكرة المدونة اللغوية المغلقة هو شيء اختصّت به البنيوية"[34].

3- الفوارق المنهجية بين الدّرس النحوي العربي والبنيوية الغربية في بداياتها:

يمكننا ملاحظة فوارق عديدة بين علم النّحو والبنيوية، في قضايا لغوية عدّة، نذكر منها:

-"المعيارية الوصفية"، حيث تعتمد البنيوية المذهب الوصفي لدراسة اللغة، بناءً على نزعتين أساسيتين هما: "النزعة إلى الحكم على العبارات بأنها صواب أو خطأ لأنها موافقة أو مخالفة لمعيار اجتماعي ما، والنزعة الثانية هي محاولة تحليل الظواهر اللغوية"[35].

-يختلف الدرس النحوي العربي في منهجه عن النزعة الأولى للبنيوية الوصفية المحضة، التي تلغي رأي الباحث نهائياً، ولا تقبل أحكامه عن المعطيات اللغوية، حيث "يكون النحوي –مثل سيبويه- في هذه الأحكام من أبعد الناس عن العلم الموضوعي إذ يفضل معياراً على آخر"[36].

-إذا ما نظرنا غلى السبب الذي من أجله أصدر سيبويه والخليل ومعاصروهما أحكاماً بالصّحة أو بالخطأ على عبارات ومعطيات لغوية، فسنجد أن تلك الأحكام تقويميّةٌ قائمةٌ على قواعد الفصاحة والإجماع، إذ لا يمكن أن يُعتَبَر كلّ نصٍّ قديم، مرجعاً صائباً كلّياً، وإلاّ فلماذا تتمّ دراسته وتحليله. ونظراً لهذا، استقرأ النحويون الأوائل اللغة، وإضافةً إلى ذلك عالجوا كيفية صياغتها التي تضبطها الضوابط، حيث يتمّ الحكم بالصواب أو الخطأ على المعطيات بمقارنتها بالضوابط العامّة للغة، ومن ذلك أنّ الشاذّ يؤخذ به، ولكن لا يقاس عليه، وهذا ما اعتبره الغربيون أحكاماً ذاتية، بينما تعتبر غير ذلك، إذ أنّ تلك الأحكام صادرة من الناطقين باللغة أنفسهم[37].

-ومن القوانين المعتمدة في إصدار الأحكام أنّ "سيبويه وأصحابه لا عدّون الكثير الاستعمال قبيحاً أيّاً كان"[38]، حيث أنّ بعض الكلام يبدو قبيحاً إذا كان في النثر، بينما هو غير ذلك في الشعر.

ويستخلص عبد الرحمن الحاج صالح أنّ "المعيار اللغوي بالنسبة للعربية هو عند النحاة الأولين مجموع الأنماط والموضوعات اللغوية والأساليب الكلامية التي كان يستعملها عامة العرب الذين وُصفوا بالفصاحة"[39]. وبذلك يكون هذا المعيار موضوعياً لا ذاتياً، لكونه قائماً على أسس موضوعية، ولو كان ظاهره يوحي بالذاتية.

-وكنقطة اختلاف أخرى بين النحو والبنيوية، والتي أدّت إلى الاختلاف في مناهج البحث: "اختلاف النّظرة إلى اللغة... إذ ترى البنيوية أنّ اللغة وليدة وظيفتها البيانية"[40]. والمقصود بذلك أنّ أساس العملية التواصلية هو إيصال الفكرة، أمّا ما يتعدّى ذلك فهو خارج نطاق الباحث اللغوي، "وأهم ممثّل لهذه النزعة هي حلقة براغ المشهورة ومارتيني"[41].

ويرى الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح أنّ الوظيفيين بالغوا في ذلك، حيث لا يمكن حصر اللغة في وظيفة التبليغ[42]، كما أنّ الباحث اللغوي حتّى في محاولته فصل المعاني عن الإطار الخارجي والجماليات والسياقات، فإنّه في محاولته تلك يُعتبر محلّلاً لوظائف لغويّة غير وظيفة التبليغ.

أمّا بالنسبة للنّحاة العرب، فقد أدركوا ما لوظيفة التّبليغ من أهمية، فقاموا بتخصيص قسم من دراساتهم للوظيفة البيانية كما في شروح سيبويه، ولكنّهم لم يفصلوا دراساتهم عن قسم آخر من الدّراسة هو "البلاغة" وعلم المعاني[43]. وبهذا تكون نظرتهم إلى وظيفة اللّغة أعمّ وأشمل وأكثر تفصيلاً.

نصل أخيرا إلى أنّ "النحو العربي قد وُضع على أسس إبستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية، وخصوصاً في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته، هذا وليس الاختلاف متوقفاً على هذا الجانب فقط، بل هناك أيضاً اختلاف آخر في النظرة إلى البحث باللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل"[44]، ومن جانب آخر لا يمنع هذا الاستنتاج الاستفادة من طرائق التحليل البنيوي في اللغة والأدب العربي، وإنّما جوهر الحاجة يكمن في تحوير هذه المناهج والطرائق لتتناسب مع خصوصية اللغة العربية.

- **خاتمـــــــة:**

اللّبس الحاصل في محاولة التوفيق بين اللّسانيات المعاصرة والنّحو العربي القديم، والاختلافات القائمة بين علماء اللّغة والألسنيين المحدثين في هذا المجال، مآله إلى تداخل المناهج الغربية الحديثة وبالأخصّ المنهج البنيوي، مع المواضيع التي تخصّ اللّغة العربية في مادتها المعرفية.

في حين لا يمكن إغفال أنّ العلوم اللّغوية الأصيلة من نحوٍ وصرف ودلالة وصوتيات، لم تكن لتصل إلينا لو لم يكن منهجها علميّاً، فمنهج الدّراسة كان وصفيّاً، تحليليّاً، وتجريبيّاً محضاً، قائماً على الموضوعية والسّببية والواقعيّة، والدّقة، بعيداً عن الذّاتية والتّعصب، ولهذا لا يجب إقصاء المناهج الأصيلة بصفة جذرية، ويكفي فقط بعض التحوير عليها، ودعمها بتحديثات تساير تطوّر اللسان البشري، وقد استطاع البروفيسور عبد الرحمن الحاج صالح وضع حدٍّ لهذا الإشكال، عن طريق استقرائه وتحليله لأسس البنيويّة، ونقدها بأسلوب منهجي، قائم على البراهين والحقائق اللّغوية التي يدعمها التّاريخ والأدب المقارن، مستفيداً بذلك من الأسس المعرفية الأصيلة للّغة العربية وعلومها مزاوجاً إيّاها بالمناهج اللّسانية المعاصرة القائمة على نظام التحليل المستوياتي.

كتوصية علمية يمكن القول أنّ الطّرح الذي يمكن الإفادة منه في الدّرس اللغوي هو البحث في التحديثات المنهجية المعاصرة التي طرأت على طرائق التحليل والتي مسّت النحو والبنيوية على حدّ سواء نظرياً وتطبيقياً.

- **الإحالات:**

[1]– عبد الرحمن الحاج صالح (1927–2017)، عالم لغوي جزائري ولد بمدينة وهران في 08 جويلية 1927، تلقى تعليما مزدوجا باللغتين العربية والفرنسية، (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين– جامع الأزهر– جامعة بوردو– أستاذ اللسانيات بكلية الآداب بالرباط– أستاذ بجامعة الجزائر رئيس قسم اللغة العربية– عميد لكلية الآداب– أستاذ زائر بجامعة فلوريدا...)– اشتهر بالنظرية الخليلية الحديثة التي نال بها الدكتوراه في اللسانيات من جامعة السوربون بفرنسا عام 1979 له العديد من البحوث والأعمال العلمية منها ما نال به جوائز عالمية... ينظر: مقال بعنوان "النظرية الخليلية الحديثة عند عبد الرحمن الحاج صالح، عادل بوديار، جامعة العربي التبسي، منشور بالموقع الالكتروني لشبكة ضياء diae.net/45160.

[2]– عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 2007، ج01، ص207.

[3]– المرجع نفسه، ص217.

[4]– عمرو بن عثمان بن قنبر الملقّب ب"سيبويه"، الكتاب، تعليق إميل بديع يعقوب، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، /1999م، مج1، ص52.

[5]– المرجع نفسه، مج02، ص305.

[6]– عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج01، ص219.

[7]- ينظر: المرجع نفسه، ص208.

[8]- المرجع نفسه، ص209.

[9]- خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2000، ص167.

[10]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في علوم اللسان، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر2007، ص139.

[11]- المرجع نفسه، ص140.

[12]- المرجع نفسه، ص139.

[13]- ينظر: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، نور الهدى لوشن، ص297.

[14]- المرجع نفسه، ص299.

[15]- المرجع نفسه، ص298.

[16]- المرجع نفسه، ص300.

[17]- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، عبد الرحمن الحاج صالح، ج02، ص60.

[18]- ينظر: مباحث في علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، نور الهدى لوشن، ص311.

[19]- المرجع نفسه، ص311.

[20]- حافظ إسماعيلي علوي ووليد أحمد العناتي، ينظر: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ط01، منشورات الاختلاف، الجزائر، 1430هـ/2009م، ص17.

[21]- المرجع نفسه، ص17.

[22]- المرجع نفسه، ص17.

[23]- المرجع نفسه، ص19.

[24]- المرجع نفسه، ص20.

[25]- المرجع نفسه، ص20.

[26]- المرجع نفسه، ص29.

[27]- المرجع نفسه، ص29.

[28]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج02، ص23.

[29]- المرجع نفسه، ص23.

[30]- المرجع نفسه، ص24.

[31]- المرجع نفسه، ص24.

[32]- المرجع نفسه، ص25.

[33]- عبد الرحمن الحاج صالح، السّماع اللّغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 2007، ص271.

[34]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج02، ص26.

[35]- المرجع نفسه، ص27.

[36]- المرجع نفسه، ص27.

[37]- المرجع نفسه، ص28.

[38]- المرجع نفسه، ص29.

[39]- المرجع نفسه، ص30.

[40]- ينظر: المرجع نفسه، ص30.

[41]- المرجع نفسه، ص31.

[42]- ينظر: المرجع نفسه، ص32.

[43]- ينظر: المرجع نفسه، ص33.

[44]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج01، ص26.